ذاكرة شاهدة
على البقاء في
فلسطين

الباقون الفلسطينيّون بعد نكبة 1948:

جدليّة المحو والبقاء في مدينة حيفا

• همّت زعبي •

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

الباقون الفلسطينيّون بعد نكبة 1948:
جدليّة المحو والبقاء في مدينة حيفا

همّت زعبي
باحثة ما بعد الدكتوراة في برنامج (EUME)، منتدى الدراسات العابرة للأقطار، برلين.

ذاكرة شاهدة على البقاء في فلسطين 1
محرّر السلسلة: محمود يزبك

© كلّ الحقوق محفوظة (2024)

مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة
شارع هميچينيم (الملك جورج) 90، حيفا
هاتف: 048552035، فاكس: 048525973
www.mada-research.org
mada@mada-research.org

ذاكرة شاهدة على البقاء في فلسطين

النكبة مستمرّة: الباقون[1] في فلسطين

يحمل المشروع الصهيونيّ مميّزات مشاريع كولونياليّة استيطانيّة، ويعتمد في جوهره على المحو والإلغاء اللّذَيْن لا يرتبطان، بالضرورة، بالإبادة الجماعيّة (Wolfe, 2006). كانت أحداث نكبة 1948 من المحطّات المركزيّة في هذا المشروع؛ إذ إنّ العام 1948، حين طردت الحركة الصهيونيّة 750 ألف فلسطينيّ، من بينهم 90% من سكّان المدن، وأفرغت وهدمت 420 قرية (Khalidi, 2005)، لم يكن نهايةَ عمليّات الإلغاء والمحو الفلسطينيَّيْن، بل جاء الإعلان عن إقامة دولة إسرائيل إعلانًا عن مرحلة تشييد وتمكين ومَأْسسة لهذا المشروع الاستيطانيّ في فلسطين في مؤسَّسات دولة.

النكبة مبنى وليست حدثًا. هي مجموعة عمليّات مستمرّة من المحو والإلغاء الجسديّة والاقتصاديّة والثقافيّة الحيّزيّة للفلسطينيّين، قاطعة لحدود المكان والزمان (خوري، 2012). هي كما وصفها المؤرّخ الفلسطينيّ نور مصالحة (Masalha, 2012) "تراوما" مستمرّة للّاجئين، وللفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة عام 1967، وكذلك للفلسطينيّين في إسرائيل.

تتناول هذه المقالة الباقين الفلسطينيّين في مدينة حيفا، مباشرة بعد احتلالها، وتُحاجج بأنّ فهم النكبة، مبنًى لا حدثًا، يقتضي التعامل مع أحداث نكبة 1948 نقطةَ تحوُّل مزدوجة من "الهدم والبناء" (غانم، 2017)، ومرحلةَ انتقاليّة بين نظامَيْن استعماريَّيْن: الاستعمار البريطانيّ والاستيطان الاستعماريّ الإسرائيليّ؛ فهي مرحلة الانتقال من اليِشوف (Yishuv)،[2] إلى مرحلة تشييد دولة المشروع الاستيطانيّ الصهيـونيّ؛ وفـي الوقت ذاته هـي استمرار لهدم الفضاء الفلسطينيّ، وبَثْره عنوةً عن امتداده العربيّ، وتكثيف

1. لا يحمل الفلسطينيّون، ممّن بَقُوا في بلادهم لاحقًا للنكبة، كلمة واحدة تُعرِّف بهم؛ فهُمْ إمّا يعرّفون على نحوِ ما جاء في بداية هذه الفِقْرة، أو بأنّهم "الفلسطينيّون في إسرائيل"، أو "الفلسطينيّون مواطنو دولة إسرائيل"، أو "عرب إسرائيل" في القاموس الإسرائيليّ. ولاحقًا، جرى الاصطلاح عليهم بالتسمية "عرب 48" إشارة إلى النكبة. اخترت كلمة "الباقون" لتختزل تجربة بقائهم وصمودهم إزاء محاولات محوهم في المشروع الصهيونيّ. فهي مشتقّة من الأصل الثلاثيّ "ب.ق.ي" المقترن بدلالة البقاء في المكان، ولكنّها تحمل كذلك دلالات الصمود والنضال؛ إذ تُستخدَم في التعبير "صراع البقاء"، وكذلك هي ضدّ كلمة "فناء" الذي أراده لها المشروع الصهيونيّ. استلهمتُ هذا من التعبير "البقيّة الباقية" الوارد في رواية إميل حبيبي "المتشائل"، في سياق وصفه لهذه المجموعة من الشعب الفلسطينيّ.

2. وهو التجمُّع الاستيطانيّ اليهوديّ الصهيونيّ في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل.

هدم مسار التمدُّن الفلسطينيّ وبداية مسار هندسة الباقين الفلسطينيّين بصفتهم "أقلّيّة داخل إسرائيل" (زعبي، 2019).

يتطلّب إدراك معنى هذه المرحلة، بصفتها مرحلة تحوُّل، تحويرًا في إپستمولوجيا دراسة فلسطين، من الحدث إلى البنْية، ومن المكان إلى الحيّز، ومن القَطْع إلى الاستمراريّة؛ إذ أسهَمَ القَطْع، بين واقع الباقين الفلسطينيّين في ما قبل النكبة وما بعدها، الذي ساد معظم الأبحاث الفلسطينيّة والإسرائيليّة، التي تناولت مكانة الفلسطينيّين بعد النكبة (منّاع، 2016؛ غانم، 2015؛ غنايم، 2014؛ هوّاري، 2023؛ بويمل، 2007؛ بنجامين ومنصور، 1992؛ جريس، 1966؛ لوستيك، 1985؛ أوستوسكي-لازر، 1996؛ Robinson, 2013)، وعلى وجه التحديد تلك التي تناولت المدن الفلسطينيّة (عثامنة، 2009؛ قاسم، 2006؛ نوريالي، 2005؛ Monterescu, 2015; Yacobi, 2009)، أسهَمَ في خلق بتر تاريخيّ مصطنَع، أُسْقِط جرّاءه جزء من تاريخ مَنْ تبقّى، وأسهَمَ في إخفاء أثر مسارات اجتماعيّة كانت في أَوْجِها، مُحِيَت مع نكبة 1948، فضلًا عن أنّه أسهَمَ في حجب بعض العوامل المنظِّمة للمشروع الصهيونيّ.

هكذا تَحوَّلَ سؤال حضور وغياب الفلسطينيّ في بلاده، خلال أحداث النكبة ومباشرة بعد حدوثها -وهو على وجه التحديد ما يعنينا في هذه المقالة- من سؤال حول بنْية المشروع الصهيونيّ إلى سؤال عمليّات عسكريّة، وتفاصيل في ساحة معركة، ومن سؤال الفضاء والحيّز العربيَّيْن إلى سؤال حدود إسرائيل وَ"المكان" المحدَّد للمدينة. وبِذا تَحوَّلَ السؤال من العودة إلى اللجوء، ومن مساءلة المشروع الصهيونيّ حول عدم السماح للفلسطينيّين بالعودة إلى بيوتهم إلى مساءلةِ مَن ترك مِن الفلسطينيّين بشأن سبب تركه. وعليه، تحاول هذه المقالة جَسْرَ واقع الفلسطينيّين، ما قبل النكبة مع ما بعدها، والإجابةَ عن السؤال: كيف، على الرغم من جهود المؤسَّسات الصهيونيّة لمنع عودة اللاجئين، وَ/أو طرد من بقي، وتضييق الحياة عليهم، عاد بعض الحيفاويّين/ات إلى مدينتهم؟ وتتحدّى المقالة بهذا السؤالَ الشائعَ إسرائيليًّا: "لماذا ترك الفلسطينيّون بلادهم؟".

الاستعمار والمدن الفلسطينيّة

تشكّل المدن الفلسطينيّة في القرن العشرين حالة دراسة مُهِمّة لفَهْم العلاقة الجدليّة بين المدينة حيّزًا مبنيًّا، والتمدُّن مسارًا اجتماعيًّا، والاستعمار منظومةَ حُكْم، وفي ذات الوقت غاية أو هدفًا للمقاومة. فقد عايشت هذه المدن وسكّانها، خلال القرنَيْن الماضيَيْن، ثلاثة أنظمة إمپرياليّة/كولونياليّة مختلفة: الحكم العثمانيّ؛ الانتداب البريطانيّ؛ الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ. وعلى الرغم من الاختلافات بين هذه الأنظمة، فإنّ جميعها أَوْلَت المدنَ اهتمامًا خاصًّا في سياساتها، وانعكست طموحاتها السياسيّة والاقتصاديّة من خلال سياسات حاولت تطبيقها في هذه المواقع.

تُشكِّلُ مدينة حيفا على وجه التحديد حالة استثنائيّة في دراسة المدن، وخاصّة في حقبة الاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ. يمكن تلخيص خصوصيّة هذه المدينة في اجتماع عاملَيْن: الأوّل أنّها بخلاف سائر المدن، التي لم تُفَرَّغ بكاملها من سكّانها الفلسطينيّين، يافا وعكّا واللدّ والرملة، وقعت -بحسب قرار التقسيم- داخل حدود الدولة اليهوديّة. والعامل الآخر أنّها لم تكن منطقة تُخومٍ حدوديّة (Frontier) كما في حالة مدينة بئر السبع في النقب. وعلى هذا، فإنّ "خطر" عودة الفلسطينيّين عن طريق نقاط التّماسّ في مواقع لجوئهم كان أقلّ تهديدًا. اجتماع هذَيْن العاملَيْن يُفسِّر، برأيي، عدم إدراج المدينة في حدود الحكم العسكريّ الرسميّ الذي فرضته الدولة اليهوديّة على معظم مَن تَبقّى من الفلسطينيّين، ومع هذا مورِسَت تجاه الباقين في حيفا التقييدات ذاتها التي مورِسَت في مناطق الحكم العسكريّ الرسميّ، على نحوِ ما سأوضّح لاحقًا (زعبي، 2021).

كون حيفا جزءًا من الدولة اليهوديّة بحسب قرار التقسيم، القرار الذي شكّل في تلك الفترة مرجعيّة للخطاب الرسميّ الإسرائيليّ تجاه العالم، استوجب من الدولة اليهوديّة -نظريًّا- أن تضمن للباقين الفلسطينيّين المساواةَ بباقي السكّان اليهود في المدينة. ومن هنا فإنّ سياسات السلطات الإسرائيليّة تجاه الحيفاويّين العرب تعبّر -أكثر من أيّ حالة أخرى- عن جوهر تصوُّرها للبقاء الفلسطينيّ ومكانة الباقين في المجتمع الاستعماريّ الجديد الذي عملت على تشييده في السنوات الأولى بعد النكبة. وبالتالي، تمكّننا دراسة مدينة حيفا، مباشرة بعد سقوطها، من فهم أعمق للمشروع الصهيونيّ من

ناحية، ومن الناحية الثانية تمكّننا من إدراك أكثر عمقًا لسؤال البقاء والباقين الفلسطينيّين.

المدن الفلسطينيّة ونكبة 1948

لم تَنْجُ المدن من أحداث النكبة، بل على العكس من ذلك؛ إذ في حين نجت بعض القرى الفلسطينيّة من التهجير الجماعيّ والهدم الكلّيّ (منّاع، 2016)، محت القوى العسكريّة الصهيونيّة محوًا شبه تامّ الغالبيّة العظمى من المدن الفلسطينيّة؛ فقد استهدفت المدن مباشرة بعد عمليّة "نحشون"،[3] وهي أوّل عمليّة في "خطّة دالِتْ"،[4] حيث ارتفعت ثقة القيادة اليهوديّة بقدرتها على الاستيلاء على المناطق التي منحتها الأمم المتّحدة للدولة اليهوديّة، بل كذلك على تطهيرها، وأَوْلت تطهيرَ المراكز الحضريّة الرئيسيّة في فلسطين اهتمامًا كبيرًا (Pappé, 2006, p. 103).

بعد مجزرة دير ياسين في التاسع من نيسان،[5] واستمرارًا لتنفيذ "خطّة دالِتْ"، استهدفت القوّات العسكريّة الصهيونيّة المدن الفلسطينيّة على نحوٍ عنيف، ما أدّى إلى احتلالها جميعها في الفترة الواقعة بين منتصف نيسان وبداية أيّار 1948 (Khalidi, 2008).[6] شملت عمليّة احتلال المدن الفلسطينيّة إفراغًا شبه تامّ لها من سكّانها الفلسطينيّين.

تشير إحصائيّات إسرائيليّة وردت في مراسلات بين جهات إسرائيليّة رسميّة مختلفة بين العامَيْن 1948 وَ1949 إلى أنّ 26,000 فلسطينيّ فقط من

3. وهي عمليّة بدأت في الأوّل من نيسان، ورَمَتْ إلى شقّ ممرّ عريض من تل أبيب على الساحل إلى القدس في الداخل، وجرى في سياق الهجوم احتلال وتدمير عدد كبير من القرى العربيّة وصولًا إلى معركة القسطل في الـ 11 من نيسان، وانتهت هذه العمليّة في الـ 13 من الشهر نفسه (Khalidi, 2008).

4. للتوسُّع بشأن "خطّة دالِتْ"، في الإمكان مراجعة المصدر الآتي: (Khalidi, 1961) .

5. إنّ لمجزرة دير ياسين (9 نيسان) أثرًا كبيرًا في نفوس الفلسطينيّين؛ فقد وصلت أخبار المجزرة، التي أسفرت عن قتل 93 ضحيّة كان من بينهم ثلاثون طفلًا، إلى مسامع الفلسطينيّين، الأمر الذي أسهَمَ في رفع منسوب الخوف، وأسهم في فرار الكثيرين منهم خوفًا من حدوث مجزرة مشابهة.

6. بداية، كان الهجوم على طبريّا التي سقطت في الـ 18 من نيسان (احتُلّت طبريّا خلال "عمليّة يِفتاح" التي رمت إلى تطهير الجليل الشرقيّ من العرب، وإلى إيجاد اتّصال بين طبريّا وصفد)، تلاها سقوط حيفا في الـ 22 من نيسان. وكان لسقوط حيفا أثر كبير إضافيّ على معنويّات سائر المدن الفلسطينيّة. ولم تَطُل الفترة بعدها لتُحتَلّ صفد في الـ 29 من نيسان والأحياء العربيّة في القدس، وسقطت عكّا في الـ 6 من أيّار، تلاها احتلال يافا في الـ 13 من الشهر نفسه.

أصل 202,000 من سكّان المدن نجَوْا من الطرد خلال عمليّات النكبة.[7] وفي وثيقة رسميّة أخرى فصّلت عدد الناجين في كلّ مدينة، واستندت إلى بلاغ من "وزارة الأقلّيّات" في إسرائيل تحت عنوان "أخبار عن العرب في إسرائيل والمناطق المحتلّة" كُتِب عليه بخطّ اليد: "سِرّيّ"، جاء بحسب بلاغات من "وزارة الأقلّيّات" يعود تاريخها إلى 1948/8/23 عن أعداد "غير اليهود" (هكذا ورد في المصدر) "أنّ عدد العرب في مدينة يافا 4,000، وفي اللدّ بقي ما بين 600 وَ 800، وفي الرملة بقي 150، وفي حيفا بقي 3,500-4,000 عربيّ، بينما لم يتبقَّ في صفد وطبريّا أيٌّ من سكّانها الفلسطينيّين".[8]

على الرغم من تعديل هذه الأرقام لاحقًا، ولا سيّما بعد إحصاء خاصّ تحضيرًا للانتخابات الأولى، أُجرِيَ في 1948/11/8، واستُكمِل في شباط 1949، بعد احتلال الجليل،[9] بلغ عدد العرب الباقين في الرملة 1,549 من أصل 16,380 في العام 1946، وفي اللدّ 1,058 من أصل 18,250 في العام 1946.[10] قد يُعْزى هذا التعديل إلى عدّة أسباب، من بينها عدم دقّة الإحصاء الأوّل الذي جرى بعد بضعة أشهر من النكبة، أو إلى لجوء وعودة البعض في تلك الفترة. لكن حتّى هذه الأرقام ما زالت تؤكّد على المحو شبه التامّ للفلسطينيّين في المدن؛ إذ لا تتعدّى نسبة المتبقّين 10% من عدد سكّان المدن الأصليّين.[11]

7. أرشيف الدولة. إحصائيّات الأقلّيّات. ملفّ رقم (3554/15)، مستنَد رقم (0801). "قائمة تلخّص عدد العرب في المجمَّعات العربيّة بين سنوات 1946 - 49/1948.

8. أرشيف الدولة. إحصائيّات الأقلّيّات. ملفّ رقم (ج ل [33] - 15/3554)، مستند رقم (0801/273).

9. رسالة من مكتب مستشار رئيس الوزراء تحت عنوان "عرب إسرائيل – تقديرات" من تاريخ 1935/5/13. أرشيف الدولة. إحصائيّات الأقلّيّات. مصدر سابق.

10. أرشيف الدولة. إحصائيّات الأقلّيّات. مصدر سابق.

11. أستثني من هذا المحو مدينة الناصرة، التي بلغ عدد سكّانها (بحسب إبلاغ من الحاكم العسكريّ إليشع شلوشْس صَدَرَ في الـ 25 من آب عام 1948) 13,609 من أصل 15,540، بالإضافة إلى 4,185 لاجئًا. المصدر السابق.

منهجيّة البحث

في غياب أرشيف فلسطينيّ، اكتسبت منهجيّة التاريخ الشفويّ أهمّيّة كبيرة في توثيق حياة الفلسطينيّين قبل النكبة، وخلال أحداثها، ولا سيّما الشرائح المهمَّشة من بينها (Masalha, 2012). مع هذا، وعلى الرغم من اهتمام دراسات التاريخ الاجتماعيّ الفلسطينيّ المتزايد في السنوات الأخيرة بالتاريخ الشفويّ، وإسهام هذه المنهجيّة في تفكيك استعمار [decolonizing] فلسطين وإفشال محاولات محوها وطمس تاريخها، ما زال التاريخ الاجتماعيّ للباقين الفلسطينيّين بعد النكبة شبْهَ مغيَّب.

تنطلق هذه المقالة من كون النكبة الفلسطينيّة لم تنتهِ في حدث نكبة 1948. ولفَهْم واقع فلسطين المستمرّ يجب التوقّف عند من بَقُوا فيها بعد احتلالها. تعالج هذه المقالة، كما السرديّات التاريخيّة التي تعتمد التاريخ الشفويّ، موضوعًا محدَّدًا من حيث الزمان والمكان (فرّو، 2013)، وتستحضر بعضًا من تجربة وواقع حياة الفلسطينيّين الذين بَقُوا في مدينتهم، حيفا، مباشرة بعد النكبة؛ إذ تروي المقالة، من خلال ما حضر في الشهادات الشفويّة ومقابلات مع سكّان حيفا الأصليّين، قصّة مدينة حيفا بعيون مغيَّبيها، متوقّفة عند معاني نكبة مدينتهم، وأسباب نزوحهم عنها، وطرق مقاومتهم، ومحاولات محوهم الجسديّة خلال النكبة من خلال بقائهم، أو عودتهم إليها. وتستعين المقالة بقراءة نقديّة لبعض الأرشيفات والصحف الإسرائيليّة لتملأ ما غاب من شهادات الباقين في حيفا (Zu'bi, 2018).[12]

لا تدّعي هذه المقالة أنّها تصوّر الحياة الحيفاويّة قبل النكبة وبَعدها على نحوِ ما كانت عليه فعلًا، لكنّها تسهم، من خلال تسليط الضوء على حياة الباقين، كما رسمتها ذاكرتهم، في تأريخ جوانب من حياة هذه الشريحة التي ما زالت مغيَّبة عن الدراسات الفلسطينيّة والعامّة.

12. لا تتوقّف هذه المقالة عند أسباب غياب واقع الحياة بعد النكبة من مقابلات الباقين/ات في حيفا، ولكن للاستزادة حول الموضوع في الإمكان مراجعة: (Zu'bi, 2018, pp. 182-208).

حيفا قبل سقوطها

"حيفا الجديدة" مدينة حديثة العهد، بناها ظاهر العمر الزيداني، حاكم شمال فلسطين في القرن الثامن عشر. نقل ظاهر العمر موقع حيفا من الطرف الجنوبيّ الشرقيّ للخليج، وما عُرِف بِـ "حيفا العتيقة"، إلى موقعها الحاليّ، أو ما عُرِف بِـ "حيفا الجديدة"، الذي يبعد ثلاثة كيلومترات عن موقعها القديم، والمحميّ بجبل الكرمل. عكَسَ هذا التوجُّه تطلُّعات ظاهر العمر السياسيّة والاقتصاديّة الحداثيّة، ومن بينها تطلُّعاته إلى استغلال موقعها الجغرافيّ لحماية ميناء عكّا وتأمين طلبات الغرب المتزايدة للقطن الفلسطينيّ (يزبك، 2009). ثمّ إن ربط حيفا بسكّة حديد الشام- الحجاز عام 1905 دفع المدينة نحو الرقيّ والعمران، وأضْحَتْ بعدها الميناءَ الرئيسيّ للداخل الفلسطينيّ والشام وحوران والحجاز، ونقطةَ وصْل مع العالم الأوروبّيّ (البحري، 1922؛ منصور، 2009).[13]

احتلّت القوّات البريطانيّة حيفا في عام 1918، وشكّلت السنواتُ الخمس عشرة الأولى من الانتداب البريطانيّ مرحلة مُهِمّة في استمرار نموّ المدينة وتطوُّرها بما يخدم مصلحة الاستعمار من ناحية، وتطلُّعات الحركة الصهيونيّة من ناحية أخرى (صيقلي، 2011). فقد بذلت حكومة الانتداب، خلال هذه الفترة، جهدًا خاصًّا لتطوير المدينة عكَسَ سياساتِها وتطلُّعاتِها السياسيّةَ. وعلى الرغم من أنّ هذه السياسات خدمت، بالأساس، تطلُّعاتِ الانتداب البريطانيّ ومصالحَهُ العسكريّةَ وتواطُؤَهُ مع القوى الصهيونيّة ودعْمَه لها، استفاد العرب من التطوُّرات والازدهار -وإن لم يكن ذاك بالقَدْر نفسه-، وسأوضّح لاحقًا بعض هذه التطوُّرات.

أسهَمَ الفلسطينيّون واستفادوا، نوعًا ما، من تحوُّل المدينة إلى أكبر مجمَّع صناعيّ في البلاد، ومن إنشاء الميناء الجديد ومَعامل تكرير البترول في أوائل الثلاثينيّات، ودخلت حيفا فترة ازدهار اقتصاديّ كبير جلب إليها الآلاف من السكّان الجدد الباحثين عن الرزق (صيقلي، 2011؛ يزبك، 1988؛ Yazbak, 2002).

يتناول هذا الجزء من المقالة تجربة أهل حيفا في مدينتهم قبل احتلالها وبَعده، ويحاول من خلال صوت سكّانها أن يرسم واقع الحياة في حيفا قبل سقوطها،

13. اجتاز الأهالي الأسوار، وبنَوْا بيوتهم ومصالحهم خارج الأسوار باتّجاهَيْن: غربًا نحو حيّ الزيتون ووادي النسناس، وشرقًا نحو حيّ وادي الصليب وأرض البلّان وحارة اليهود ووادي روشميا والحلّيصة.

وكذلك تجربتهم خلال أحداث النكبة. ويحاول الجزء الأخير الإجابة عن السؤال "لماذا ترك مَن ترك، ولماذا بقي مَن بقي؟" آخذين بعين الاعتبار خصوصيّة المشروع الصهيونيّ، وعوامل ضابطة في بنْيته. فضلًا عن هذا، تقدّم المقالة قراءة لجدليّة الفضاء والمكان، وجدليّة القوّة والمقاومة في الحالة الفلسطينيّة.

حيفا أمّ العمل

نتيجة للأسباب الواردة آنفًا، إضافة إلى الحاجة الاقتصاديّة الصعبة التي واجهها الريفيّون في بلداتهم وقراهم، بفعل سياسة بريطانيا في موضوع الأراضي (فارس، 2014 أ، فارس، 2014 ب؛ يزبك، 1988؛ صيقلي، 2011؛ فخر الدين، 2017؛ Abdu-Zubi 1987). شهدت حيفا خلال السنوات 1931-1944 زيادة في نسبة سكّانها العرب تجاوزت الـ80%، وتُعتبر هذه زيادة كبيرة جدًّا حتّى حين مقارنتها مع سائر المدن الفلسطينيّة في تلك الفترة (يزبك، 1988).[14] هاجر آلاف الفلسطينيّين إلى حيفا من مختلف أنحاء فلسطين، وكذلك هاجر إليها آخرون من شتّى أنحاء العالم العربيّ، ولا سيّما بلاد الشام. في هذا الصدد روى أحدهم:

> أصل العيلة من جبل النار (نابلس)... جدّي كان متجوّز وَحدة قبل ستّي وماتت. كان عندهم كم ولد، وواحد منهم كان بحيفا فاتح دكّان. قَلّها يا حجّة (بعد ما مات جدّي) جيبي هالولاد وتعالي، هون بتقدروا بحيفا تلاقوا شغل. كانت حيفا بادية تغلى، وكان بعد الحرب العالميّة الأولى لمّا انتصروا الإنچليز، وصار بدهن حركة جيوش ونقل وإلخ... انتقلت الأهمّيّة لحيفا، لأنّه صار فيه قطار.

لم تكن هذه الرواية استثنائيّة، إذ تشهد الغالبيّة العظمى من المقابَلات التي أجريتها مع منَ تبقّى في حيفا، بعد النكبة، أنّ كثيرًا من العائلات تنتمي -بأحد شقَّيْها على الأقلّ، وعلى الغالب من طرف الزوجة- إلى أحد بلاد الشام (فلسطين، أو الأردنّ، أو سوريا، أو لبنان). جاء على لسان إحدى النساء: "أنا حيفاويّة بَسّ ما خلقت بحيفا. إمّي خلّفتني في لبنان في [قرية] يارون. إمّي

14. في حين شهدت السنوات 1922-1931 زيادة في عدد سكّان المدن العرب بنسبة 41.1%، كانت نسبة زيادة العرب في مدينة حيفا، في تلك السنوات، أعلى منها بـ 46.1% (يزبك، 1998).

وأبوي بعد ما تجوّزوا سكنوا في حيفا، بَسّ لمّا كانت إمّي بدها تخلّف، كانت تطلع عند أهلها في لبنان. فِشّ مثل الوَحدة تخلّف وتكون بين أهلها". وذكرت لي سيّدة أخرى: "أختي خلقت بلبنان، بَسّ أنا خلقت بحيفا. أهلي أجوا لأنّه مَكَنْش فيه أشغال بلبنان، كانوا ساكنين بقرية دير القمر، وما كان فيه أشغال. إشي راح على الأرجنتين، وإشي أجا على حيفا. أجا هو [أبي] وإمّي، وأختي كان عمرها تقريبًا سنة، واستقرّوا بفلسطين".

لم تكن حيفا، على نحوٍ خاصّ، تختلف من هذه الناحية عن مدن أخرى من مدن الساحل الفلسطينيّ، وقد انعكس هذا على نحوٍ بالغ على التركيبة السكّانيّة في المدينة؛ فكما في طرابلس (زيادة، 2010)، التي أسهمت جماعات سكّانها المختلفة في إضافة تنوُّع للمدينة، تعدّدت التركيبة السكّانيّة في مدينة حيفا، وتميّز شكل مجتمعها بكونه متنوّعًا؛ إذ ثمّة سكّان قدامى إلى جانب مهاجرين من الريف الفلسطينيّ من المسلمين والمسيحيّين واليهود كذلك (يزبك، 1998).

أسواق المدينة: الريف والمدينة والفضاء العربيّ

انعكست الهجرة العربيّة على جميع نواحي الحياة في مدينة حيفا، وأسهَمَ ميناؤها وحدودها المفتوحة أيضًا في انتعاش اقتصادها وتنوُّع أسواقها. وقد نجد في أسماء أسواقها دلالة على كونها جزءًا من العالم العربيّ المحيط، وفي شهادات أهلها، مؤشّرًا على طبيعة الحياة فيها وعلاقتها بمحيطها العربيّ من ناحية، ومع سائر أقطار العالم من ناحية أخرى: "أبوي كان يشتغل تاجر قماش، يستورد قماش من أوروبّا ومن الشام ومن الدول العربيّة. من الشام أكثر إشي. كان عنده محلّ بسوق الشوام، كان إله فيه كمان شريك. وهذا السوق ملان، كيف بدّك تقولي السوق القديم بالناصرة اليوم، بَسّ كثير متشعّب على مساحة كبيرة". وقالت أخرى: "كان في كلّ إشي بسوق الشوام. تجارة قماش، خيّاطين، فيه محلّ ألعاب معروف. مرّة بالمدرسة، الراهبات علّمونا إنّه في إشي إسمه المنّ والسلوى، حكتلنا إنّه بنلاقيه عند نعيم العسل. رحت عند نعيم العسل بالسوق أعطيته تعريفة وأعطاني ملبَّس، أخدتهن ومبسوطة فيهن. بذكر أبوي صار يضحك على قَدّ ما كنت معجوقة".

مَن لم ينقل مكان سكنه من الريف إلى المدينة، استفاد من أسواقها ومن بيع مُنْتَجات الريف فيها: "الخُضرا يا بنتي كانت تيجي من القرى حوالي حيفا؛

من شفاعمرو ومن عبلّين وطمرة. وأهمّ إشي كان منتوجات البيض والأجبان والألبان، فكانت النسوان البدويّات تجيب البيض والجاج واللبن من القرى حوالي حيفا، وتبيعها بالسوق بساعات الصبح".

المشهد المدنيّ: المؤسَّسات، والثقافة، والصحافة

انعكس انفتاح حيفا الاقتصاديّ وازدهارها، أيضًا، في إنشاء مؤسَّسات وطنيّة؛ فعلى سبيل المثال، أُسِّست في حيفا، في تمّوز 1919، غرفة تجاريّة تُعْنى بالحالة الاقتصاديّة، وتسهِّل أعمال التجارة، وتمثِّل التجّار أمام الحكومة في كلّ المخابرات والمراجعات في صالح التجارة بواسطة الأعضاء الاثني عشر، الذين ينتخبهم التجّار، مرّة كلّ سنتين، مع رئيس لها (البحري، 1922).

ذكر رشيد الحاجّ إبراهيم في مذكّراته نشأة الكثير من المؤسَّسات العربيّة في المدينة التي اهتمّت بالتعليم والثقافة والمجتمع، فكان في المدينة "النادي الأرثوذكسيّ"، وكانت تُلقى فيه المحاضرات الأدبيّة والعلميّة والسياسيّة، وكذلك تأسّست في المدينة "الجمعيّة الإسلاميّة" (1920) و"لجنة التيم العربيّ" (1940) (الحاجّ إبراهيم، 2005، ص. 227).

كان للصحافة نصيب وافر في حيفا، وخاصّة بعد إعلان الانقلاب العثمانيّ في عام 1908 في إستنبول، والتزام السلطان العثمانيّ بمنح مزيد من الحرّيّات. فقد تأسّست فيها مجلّات وصحف، من أهمّها: مجلّة "النفائس العصريّة" لخليل بيدس، وجريدة "الكرمل" لصاحبها نجيب نصّار، وَ"النفير" لصاحبها إيليا زكّا، وَ"الزهرة" وَ"الزهور" لصاحبهما جميل البحري (البحري، 1922).

كذلك شهدت حيفا، ضمن مسيرة نهضتها الفكريّة والثقافيّة، مَشاهد من الأعمال المسرحيّة أسهَمَ فيها كبار ممثّلي المسرح الفلسطينيّ في حيفا ويافا، وكان لحيفا فرقة مسرحيّة وطنيّة باسم "فرقة الكرمل التمثيليّة" بإدارة إسكندر أيّوب بدران. وتأسَّسَ في حيفا "المعهد الموسيقيّ العربيّ" بإدارة الموسيقار سليم الحلو، ودرّسَ فيه حليم الرومي.[15] وكان من الطبيعيّ، في تلك الفترة، أن

15. ملحّن ومغنٍّ وعازف لبنانيّ، وهو والد الفنّانة ماجدة الرومي.

تستضيف حيفا -شأنها في ذلك شأن مدن فلسطينيّة وعربيّة أخرى- شخصّيات فنّيّة عربيّة. فقد استضافت حيفا عميد المسرح العربيّ يوسف وهبي وفرقته "رمسيس" القادمة من القاهرة. وكذلك أدّت الفِرق الموسيقيّة المصريّة عروضًا غنائيّة ومسرحيّة مغنّاة على خشبة "مسرح عين دور" و"متنزّه الانشراح" وغيرهما. وكان أبرزها حفلات الموسيقار فريد الأطرش وشقيقته أسمهان. ولبّت أمّ كلثوم دعوة للغناء في حيفا، وجّهها إليها شباب "نادي الرابطة العربيّة" في حيفا، وغنّت على خشبة "مسرح الانشراح" في المدينة (منصور، 2011).

المصدر "موقع عرب 48".

نكبة حيفا

كسائر مدن فلسطين وقراها، شهدت مدينة حيفا غضبًا وتوتُّرًا شديدين في أعقاب إعلان قرار التقسيم في تشرين الثاني 1947. وفي أعقاب الإضراب الذي أعلنته "الهيئة العربيّة العليا" كردّ فعل رافض لقرار التقسيم، شهدت المدينة العربيّة أعمال عنف وإلقاء قنابل من قبل القوّات الصهيونيّة.

بدأ إطلاق نار من اليهود الساعة الحادية عشرة والنصف قبل ظهر اليوم الثامن من كانون الأوّل سنة 1947 بإلقاء اليهود قنبلة في شارع هَشومير، ثمّ قنابل أخرى في أعلى درج شكري وأعلى شارع بيلو، واستمرّ إطلاق النار على حيّ

الحلّيصة العربيّ من أسلحة يهوديّة أوتوماتيكيّة، ثمّ من هدار هَكَرْمِل إلى شارع اليرموك وشارع حسّان وشارع صلاح الدين. كما تَهاطَلَ الرصاص من عمارة البراد اليهوديّ على حيّ الغزازوة ووادي روشميا، وبقيت الأحياء العربيّة في وادي روشميا وحيّ الغزازوة وحيّ جامع الحاجّ عبد الله وحيّ الحلّيصة عرضة لرصاص متواصل بقيّة ليل الثامن من كانون الأوّل وطيلة اليوم نفسه حتّى الساعة التاسعة مساء (الحاجّ إبراهيم، 2005).

استمرّت هذه الاعتداءات طيلة الأشهر التي سبقت احتلال حيفا، وسقط نتيجة لها شهداء وجرحى، وتسبّبت في خوف الفلسطينيّين، حيث نزح جرّاءها كثير منهم عن المدينة. ازدادت حركة النزوح مع الشهر الثاني من سنة 1948، حيث تشير مذكّرات رشيد الحاجّ إبراهيم إلى "اقفرار حيّ الغزازوة، وحيّ الحلّيصة، وأرض اليهود، إلّا من بعض العائلات وأعداد قليلة من الحرس. هذا بالإضافة إلى نزوح الفلسطينيّين من حيّ البرج واستيلاء اليهود عليه، ومن حيّ وادي الجمال وحيّ الزيتون" (الحاجّ إبراهيم، 2005، ص.ص. 44-87). حصل هذا النزوح على الرغم من توجيهات "اللجنة القوميّة في حيفا"[16] إلى سكّان حيفا الداعية إلى التمسّك والبقاء في المدينة منذ تأسيس هذه اللجنة في كانون الأوّل 1948 (Khalidi, 2008).

أسفرت هذه الأحداث عن نزوح بعض من قيادات الفلسطينيّين عن المدينة (Pappe', 2006). ترك بعضهم حيفا باتّجاه الدول العربيّة لاستشارة الهيئة العربيّة العليا وَ/أو القيادة العسكريّة، كما حدث مع رشيد الحاجّ إبراهيم، الذي ترك حيفا في الثامن من نيسان 1948 في مَهَمّة عاجلة للقاء أمين الحسينيّ في القاهرة والرئيس شكري القُوَّتْلي وأعضاء اللجنة العسكريّة في دمشق. ويقدَّر أنّه قد بقي في المدينة قبل بدء عمليّة احتلالها ما يقارب الـ 50 ألفًا، نزح غالبيّتهم عند احتلال المدينة في نيسان من العام نفسه (Pappe', 2006).

16. في أعقاب قرار التقسيم، أوعزت "الهيئة العربية العليا" إلى رجالات البلاد في المدن والقرى الفلسطينيّة ضرورة تشكيل لجان قوميّة. وقد أَعَدّت الهيئة نظامًا لهذه اللجان يحتّم العمل تحت لوائها وضمن الميثاق القوميّ (الحاجّ إبراهيم، 2005، ص. 30).

يوم سقوط حيفا

بدأ الهجوم الصهيونيّ الشامل على حيفا في وقت مبكّر من صباح الأربعاء الـ 21 من نيسان 1948، وانتهى في اليوم التالي مع سقوط المدينة واحتلالها. كانت أهمّيّة احتلال حيفا العسكريّة، بالنسبة للحركة الصهيونيّة، أنّها النقطة التي يلتقي فيها خَطّا المستعمرات اليهوديّة الشرقيُّ والجنوبيُّ، ولكونها أهمَّ مرفأ عربيّ في شرق البحر الأبيض المتوسّط بعد الإسكندريّة، ونقطةَ مصبّ أنبوب النفط الآتي من العراق، وكانت مركزًا رئيسيًّا لسكّة حديد وطرق مواصلات (Khalidi, 2008).

سُمِّيَتْ عمليّة احتلال حيفا العربيّة في البداية "عمليّة مِسْپَرايِمْ"؛ أي "عمليّة المِقصّ"؛ وذلك نسبة إلى الخطّة العسكريّة التي رَمَتْ إلى "تقطيع" أوصال المدينة العربيّة، وفصل كلّ قسم كلّيًّا عن القسمين الآخرين. ثمّ غُيِّر الاسم لاحقًا ليصبح "عمليّة بيعور حَمِيتْسْ"؛ أي "عمليّة تنظيف (حرق) الخميرة"،[17] نسبة إلى توقيت تنفيذها عشيّة عيد الفصح. وقد كان الهجوم على حيفا، كما يشير الخالدي، منسَّقًا بين القيادة العليا "للهچاناه" والقائد العسكريّ البريطانيّ الأعلى في حيفا، الميجور جنرال هيو ستوكويل.[18]

كان الخروجُ الجماعيّ لمَن تبقّى من سكّان حيفا العرب، الذي بدأ في الـ 22 من نيسان، ردَّ فعل على التكتيكات التي اتّبعتها "الهچاناه" خلال الهجوم، والتي كانت مزيجًا من القصف بالرشّاشات الثقيلة ومَدافع الهاون والحرب النفسيّة من خلال إحداث ضجيجٍ تَكرَّرَ من المساء حتّى منتصف الليل، ونتيجة لتواطؤ أنچلو-صهيونيّ استمرّ حتّى بَعد سقوط المدينة (Khalidi, 2008 ; Yazbak & Weiss, 2011).

17. تشير هذه التسمية إلى عمليّة تنظيف الخميرة التي تسبق الاحتفالات بِعيد الفصح عملًا بنهي الربّ للإسرائيليّين عن أكل الخبز المختمر أثناء هروبهم من مصر. ووَفقًا للعُرف اليهوديّ، يجري في الليلة السابقة للاحتفال بالعيد تفتيش البيت بدقّة شديدة بحثًا عن أيّ "حَمِيتْسْ"، وكلّ ما يُعْثَر عليه يُجْمَع ويُحْرَق قبل ظهر اليوم التالي.

18. قائد الفرقة السادسة المحمولة جوًّا، والتي كان مقرّ قيادتها في حيفا.

لماذا ترك الفلسطينيّون حيفا؟

جدليّة الفضاء والمكان

على العكس من مدينة طرابلس، التي سرد خالد زيادة سيرة تطوُّرها والتحوُّلات التي طرأت عليها في الفترة الممتدّة من خمسينيّات القرن الماضي حتّى سبعينيّاته في ثلاثيّة "مدينة على المتوسّط" (2010)، لم يتطوّر مسار التمدُّن في حيفا بتفاعل مع القوى الكولونياليّة وقوى السوق الاقتصاديّة فحسب، بل قطعت أحداث النكبة كلّ ما عرفه أهل حيفا من قبل. وعلى العكس من المؤرّخين وعلماء الاجتماع، لا يعيش أهل حيفا والفلسطينيّون عمومًا تاريخ فلسطين وتاريخ حيفا ابتداء من نيسان 1948. فحيفا بالنسبة لهم كانت جزءًا لا يتجزّأ من الفضاء المحيط، وما يجمعهم فيها -بحسب ما جاء في شهادات أهلها- ليس الثقافة والتجارة واللغة فحسب، بل كذلك علاقات اجتماعيّة وأواصر عائليّة وصِلة قرابة الدم.

في حين تؤكّد الدراسات التاريخيّة (Khalidi, 2005) على الأسباب العسكريّة والسياسيّة التي أدّت إلى نزوح الفلسطينيّين، تشير الشهادات الشفويّة أنّ كون حيفا جزءًا من الفضاء المحيط، وكونها تقيم شبكة علاقات شخصيّة وتجاريّة وثقافيّة وعائليّة، شكّلا سببًا لنزوح أهل المدينة عن مدينتهم، في ظلّ الخوف والرعب الذي فرضته القوّة العسكريّة الصهيونيّة، فالتجأوا إلى أقربائهم ومعارفهم، وكانوا على يقين أنّ لجوءهم مؤقّت، إلى حين انتهاء الحرب.

بدأت موجة نزوح أهل حيفا في أعقاب قرار التقسيم، في تشرين الثاني 1947، وازدادت على نحوٍ خاصّ نتيجة للأعمال الإرهابيّة ضدّهم: "لمّا صار الطخّ على العمارة، يلّي إحنا ودار عمّي ساكنين فيها -عمّي كمان كان ساكن بحيفا لأنّه كان موظّف في سكّة الحديد- ولمّا صار الطخّ رجع [عمّي] عند بيت جدّي، يعني عند أهله في منطقة بيت لحم. وإحنا رحنا عند دار جدّي (أهل إمّي) يعني عند أخوالي بالناصرة".

كانت هذه حال معظم من قابلْتُهم؛ فحيفا -كما وَرَدَ آنفًا- سكنها في الفترة الواقعة بين نهاية الفترة العثمانيّة حتّى عام النكبة فلسطينيّون وعرب من شتّى بقاع العالم العربيّ. هؤلاء هاجروا إليها إمّا بحثًا عن عمل، وإمّا بغية الاستفادة من انتعاشها الاقتصاديّ وازدهارها، وفيها استثمروا. ولم يقطع أيّ

من المهاجرين علاقتهم بعائلاتهم في مسقط رأسهم (يزبك، 1988). كذلك يُسْتَدَلّ هذا من رسالة اللجنة العربيّة المؤقَّتة إلى وزير الخارجيّة في تشرين الأوّل 1948، إذ جاء فيها -في ما جاء-: "كما تعلمون، الكثير من العائلات العربيّة من حيفا كانت في المعتاد تسافر إلى لبنان لقضاء الصيف هناك [...] وبالطبع تعلمون أنّ هناك علاقات قرابة ونَسَب بين الكثير من العائلات العربيّة في حيفا والعائلات اللبنانيّة".[19] وعلى هذا، تُشكّل شبكة العلاقات الشخصيّة والروابط الأُسَريّة، بتقديري، أحدَ الدوافع المركزيّة التي حَدَتْ بالكثير من أهالي حيفا إلى ترك المدينة لاحقًا نظرًا لتصاعد المواجهات في المدينة.

تتوافق هذه النتائج مع نتائج دراسة فارس التي يشير فيها إلى أنّ الريفيّات في حيفا كُنّ من المجموعات التي رحلت قبل سقوط المدينة، "فقد أرسل الفلّاحون الفلسطينيّون من خارج حيفا نساءهم في البداية إلى قراهم فجمع السلاودة [نسبة إلى قرية سلواد]، على سبيل المثال، زوجاتهم وأبناءهم وحملوهم بسيّارات شحن كبيرة. أخذ البعض ما تمكّن من أغراضه، في حين ترك آخرون كلّ شيء وراءهم، فكان أمل العودة يراود الغالبيّة العظمى من الريفيّات" (فارس، 2014، ص. 74).

هنا نجد تأكيدًا إضافيًّا على دَوْر العلاقات الأُسَريّة في نزوح الحيفاويّين، وأنّهم تركوا بيوتهم في حيفا وفي نيّتهم العودة إليها، إذ لم تكن هذه المرّة الوحيدة التي ترك فيها أهل حيفا بيوتهم، ولكنّها كانت الأخيرة، بلا عودة. فقد سبقت أحداثَ النكبة ببضع سنوات الحربُ العالميّة الثانية؛ الحرب التي تعرّضت فيها حيفا إلى القصف. ففي تلك الأيّام، كما هو الشأن في أوقات الحروب في العالم، شكّل الخوف عاملًا دافعًا للناس، فترك العديدون بيوتهم ولجأوا إلى عائلاتهم، وإلى مناطق أكثر أمنًا، في فلسطين والفضاء العربيّ. قالت إحداهنّ: "وقت الحرب [العالميّة الثانية] خفنا كثير. صار ضرب بالطيّارات على حيفا. تركنا البيت ورحنا قعدنا برام الله. قعدنا هناك تقريبًا سنتين. أهلي قعدوا برام الله وحطّوني في مدرسة داخليّة. تعلّمت بالداخليّة في مدرسة الراهبات بالقدس مدّة سنتين".

وقالت أخرى: "وقت الحرب الكبرى [العالميّة الثانية] تعلّمت براهبات عسفيا. كنّا صغار وكنّا نخاف. أمّي طلّعتنا أنا وأختي (من المدارس بحيفا) وحطّونا

19. أرشيف الدولة. وزارة الأقلّيّات. لَمّ شمل. حيفا، 5 تشرين الأوّل 1948. (ج – 65/309).

براهبات عسفيا. بقيت بعسفيا سنة ورجعنا على بيتنا بحيفا بعد ما خلصت الحرب وهِدْيَت الأمور". بالمثْل تصرّفت عائلة شخص آخر: "إحنا بالأصل من زمّارين (زخرون يعكوف اليوم). وقت الحرب الكبرى كنّا ساكنين بحيفا. جينا عليها عشان أبوي لاقى شغل. بَسّ وقت الحرب [العالميّة الثانية] أهلي أخدونا عالبلد [زمّارين] لَبين ما تهدا الأمور".

وبالتالي، لم تكن عمليّات الترهيب والمجازر الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها المؤسَّسات الصهيونيّة خلال أحداث النكبة، بل تجسّدت الجريمة الحقيقيّة في قرار السلطات الصهيونيّة بأوامر عليا لمنع عودة اللاجئين. يظهر هذا بشكل واضح من مكتوب أرسله بن چوريون لآبا حوشي بتاريخ 1948/6/2، "يصلني أنّ مستر ماريون [...] يهتمّ بإرجاع العرب. لا أعرف ما له في هذا ولكن، حتّى انتهاء الحرب، نحن غير معنيّين بإرجاع العدوّ، وعلى جميع المؤسَّسات أن تعمل وَفق هذه السياسة" (إيشِل، 2002). كذلك يبرز الأمر على نحوٍ جليّ في أحد التقارير التي أرسلها يعقوب سلامون[20] إلى بن چوريون تحت عنوان "تحرير حيفا"، إذ كتب في أحد التقارير بشأن لقائه مع المطران حكيم، من تاريخ 1948/6/26 مباشرة بعد وصوله إلى حيفا، أنّه لا يمكن الحديث عن إرجاع أيّ من العرب قبل انتهاء الحرب، وكان هذا ردّه على طلب المطران حكيم بأنّه سيوصي فقط على طلب عودة المسالمين من أبناء طائفته.[21]

20. كان يعقوب سلامون شخصيّة مركزيّة في حيفا. عمل ضابطَ اتّصال مع مقرّ المنطقة الشماليّة للجيش البريطانيّ في مقرّ "الهچاناه" في الشمال وحيفا. كان سلامون على اتّصال بالنخبة الفلسطينيّة، ومن ضمنهم مندوبو "اللجنة العربيّة القوميّة". وفي المفاوضات التي تَلَتْ سقوط حيفا، شغل منصب المتحدّث الرئيسيّ باسْم "الهچاناه".

21. تفاصيل المحادثة مع المطران حكيم من يوم السبت 1948/6/26. أرشيف الدولة. ملفّ "تحرير حيفا" رقم (ف [80] - 3/941).

الصورة من صحيفة "هآرتس"، 1948.

الـچـيتو واستمرار عمليّات الطرد

لم تنتهِ نكبة الفلسطينيّين في العام 1948، بل استمرّت المؤسَّسة الصهيونيّة في رفضها عودة اللاجئين، وفي معاداتها لمَن تبقّى من الفلسطينيّين بشتّى الوسائل؛ فقد استمرّت العمليّات المنظَّمة لطرد الفلسطينيّين، حتّى بعد الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، حيث طُرِد المئات من الفلسطينيّين خارج المناطق التي احتلّتها العصابات الصهيونيّة، على نحوِ ما حدث في قرية المجدل وقريتَيْ إقرث وكفر برعم (منّاع، 2016). ولم تَسْلم حيفا من محاولات الترهيب بعد احتلال المدينة والتوقيع، في الـ22 من نيسان عام 1948، على "وثيقة استسلام عرب حيفا في حرب الاستقلال" (كما سُمِّيت في المصادر الإسرائيليّة)؛ فجاءت أعمال الترهيب لتجبر العرب الباقين في حيفا على ترك المدينة كما يُستدَلّ من البلاغات التي جُمِعت في أرشيف "الهچاناه". في أحد هذه البلاغات، الذي حمل التعريف "موثوق جدًّا"، جاء ما يلي: "في أعقاب عمليّات رجالنا في حيفا ودعايتنا وتحذيراتنا، شوهد كثير من العرب يتركون المدينة في قوارب ووسائل نقل بَحْريّة أخرى، ووجْهتُهُم إلى

عكّا".[22] وجاء في بلاغ آخر: "خلال الـ 28 من نيسان، شوهدت عائلات عربيّة، صاحبة مقامات رفيعة في المدينة، تفرّغ بيوتها وتتّجه إلى لبنان، معظمهم في مَرْكباتهم الخاصّة".[23]

استمرّت عمليّة الطرد المؤسَّساتيّ على الأقلّ حتّى نهاية عام 1948، كما يُستدَلّ من خبر في جريدة "الاتّحاد" حظرته الرقابة في الـ 17 من كانون الأوّل 1948. جاء في التقرير:

> إنّ الخبر يحتوي على مصير الموقوفين في التفتيش الذي تمّ في حيفا الأسبوع المنصرم. الموقوفون وعددهم 120 (رجلًا وامرأة) وُزِّعوا على ثلاث مجموعات. إحدى هذه المجموعات نُقِلَت في سيّارة مصفَّحة إلى الحدود اللبنانيّة، وطُلِب منها عبور الحدود اللبنانيّة في الليل. أمّا أعضاء المجموعتين الأخيرتين، فيُعْتَقَد أنّهم نُقِلوا إلى حدود المثلّث، وأنّ بعضهم كان بحوزتهم تصريح إقامة في مدينة حيفا.[24]

22. 1948/4/25، "هروب الكثير من العرب عن طريق البحر". أرشيف "الهجاناه". شعبة (105). ملفّ 257.

23. بلاغ جِدّيّ، ليطنا (هو اسم قسم الاستخبارات في "الهجاناه") من حيرام [حيرام هو اسم الدائرة البريطانيّة لخدمة الاستخبارات في "الهجاناه"] "العائلات العربيّة المحترمة تترك حيّ وادي النسناس والمستعمَرة الألمانيّة". أرشيف "الهجاناه". شعبة (105). ملفّ (257).

24. أخبار وقوائم حُظِرت من جريدة الاتّحاد. أرشيف دولة إسرائيل. مكتب وزارة الأقلّيّات. صحف. (ج –75/309).

הצנזורה הצבאית

أخبار وقوائم حُظِرَت من جريدة "الاتّحاد". أرشيف دولة إسرائيل. مكتب وزارة الأقلّيّات. صحف. (ج –75/309).

بالإضافة إلى هذا، وُضِع مَن بَقُوا من الفلسطينيّين في الأراضي التي احتلّتها القوّات الصهيونيّة تحت حكم عسكريّ استمرّ حتّى نهاية عام 1966، وكان ذلك بقرار من مجلس الدولة المؤقّت، أثناء حرب عام 1948، وتحديدًا في الـ 19 من أيّار.[25] شملت أنظمة الحكم العسكريّ مدن اللدّ والرملة ويافا، كما شملت منطقة الحكم العسكريّ شمال مدينة عكّا،[26] لتخضع كلّ المدن الفلسطينيّة التي كان من المفترَض أن تكون ضمن حدود الدولة العربيّة، وَفْق قرار التقسيم، تحت الحكم العسكريّ الإسرائيليّ.

25. للاطّلاع على المزيد في ما يخصّ الحكم العسكريّ، تُرْجى مراجعة: كبها، 2012.

26. انتهى الحكم العسكريّ الرسميّ في المدن يافا واللدّ والرملة في الأوّل من تمّوز 1949، بينما استمرّ الحكم العسكريّ في مدينة عكّا حتّى حزيران 1951.

وُضِع مَن تبقّى في هذه المدن في چيتو؛ مَن تبقَّوْا في يافا جُمِعوا في حيّ العجمي، وجُمِع أهل اللدّ في حيّ الكنيسة، ومَن تبقَّوْا من مدينة الرملة أُجبروا على الانتقال إلى حيّ "الچيتو" (كما شاع اسمه حتّى اليوم بين أهل المدينة). وعلى الرغم من عدم شمل مدينة حيفا في المناطق المحدَّدة في قرار الحكم العسكريّ الرسميّ، أُجبِرَ مَن تبقَّوْا من العرب في حيفا -وكان عددهم نحو 3,200 -[27] على الانتقال إلى چيتو "وادي النسناس" بأوامر عسكريّة، وقد أُحيطَت المنطقة العربيّة بأسلاك شائكة، على نحوٍ ما يُسْتَدَلّ من بلاغ ضابط البلد التحتى، في إحدى جلسات اللجنة لشؤون العرب في أيّار 1948.[28]

جاءت هذه القرارات بعد أن أعلنت المؤسَّسات "الوطنيّة العليا" الصهيونيّة، في 1948/5/5، عن انتهاء "الحكم العسكريّ" الذي كان قد أُعْلِن على البلد مباشرة بعد احتلالها، وعن نقل الصلاحيّات المدنيّة لِ "لجنة الوضع" ("قَعَداتْ هَمَتْساڤْ")، وإبقاء المسؤوليّة على الجانب الأمنيّ لقوى "الهچاناه".[29] فعلى الرغم من انتهاء فرض "الحكم العسكريّ" على المدينة، تطابقت السياسات تجاه الفلسطينيّين في حيفا مع تلك التي انْتُهِجَت تجاه الفلسطينيّين الذين وقعوا تحت الحكم العسكريّ الرسميّ في يافا واللدّ والرملة، وشملت إلزامَهم باستصدار تصاريح عسكريّة في حال خروجهم من الچيتو، مَهْما كانت وجْهَتُهُم (يشمل هذا وصولهم إلى مناطق أخرى داخل مدينة حيفا ذاتها). شكّلت هذه الممارَسات بداية عزل حيفا عنْوةً عن فضائها العربيّ، عن ريفها الفلسطينيّ، وتحديد شكل علاقة جديد مع مدينتهم حيفا.

27. قائمة تلخّص المجمّعات العربيّة في إسرائيل في السنوات 1946-1948. أرشيف الدولة. إحصائيّات الأقلّيّات. (ج ل- 15/3554).

28. پروتوكول الجلسة الرابعة للجنة شؤون العرب، 20 أيّار 1948. وزارة القضاء. شؤون عرب حيفا. أرشيف الدولة (ج- 28/5670).

29. جريدة **هَمِشْمار** (1948، 5 أيّار).

مقاومة المحو: البقاء والعودة إلى حيفا

يحاجج آصف بيات أنّ فَهْم المقاومة يجب أن يأخذ بعين الاعتبار علاقتها النسبيّة مع القوّة والسيطرة، ويضيف أنّه لا يمكن أن نفهم مقاومة المقموعين بمعزل عن فَهْمنا لدَوْر السلطة ولتنظيم الدولة (Bayat, 2000). لا يختلف ڤيرانْشيني مع بيات بشأن العلاقة الجدليّة بين أساليب المقاومة وممارَسات القوّة، ويتّفق معه بشأن اختلاف وتنوُّع طرق المقاومة التي يجب فهمها بحسب الشروط البنيويّة التي يحاول النظام تحصيلها من خلال القوّة التي يمارسها (Veracini, 2011). وبالتالي، في حين عملت السلطات الصهيونيّة، في تلك الفترة، على استخدام أساليب متعدّدة لتحقيق شرط محو الفلسطينيّين الجسديّ من بلادهم، جاءت مقاومة الباقين من خلال البقاء وَ/أو من خلال العودة الفعليّة؛ فكما أنّ الصمود فعلُ مقاومةٍ فلسطينيٌّ في المنفى (غانم، 2015؛ Allen, 2008)، كذلك كانت العودةُ والبقاءُ بالنسبة للسكّان الأصليّين في حيفا، مباشرة بعد أحداث نكبة 1948، فِعْلَ مقاومة لمحاولات محوهم وإبعادهم جسديًّا عن مدينتهم.

وصفت إحدى النساء سبب بقائهم في البلاد على النحو الآتي:

> بدّي أَقُلّك ليش بقينا، لأنّه هون بيتنا، وهون وَطَنّا، وهون أرضنا، وهون خلقنا. بحرب 2006[30] بنتي قالت لي تعالي اطلعي على الناصرة، ممكن تموتي إذا بقيتِ بحيفا. قلت لها طلعنا بِـ 48 وراح بيتنا، أنا بَموت هون وما بَطْلَع من بيتي. وقتها بالنكبة إحنا نزلنا قعدنا بالكنيسة، ومن هناك نزلنا على المينا. ما بذكر ليه تركنا الكنيسة، بَسّ بَعْرِف إنّه الإنجليز كانوا يشجّعوا الناس تطلع بباخرة صغيرة على بيروت. إمّي قالت لأ، إحنا ما بنطلع، أنا بدّي أروح على عكّا، ومن هناك للناصرة. بدّي أروح عند بيت أهلي. ما بترك البلاد وأهلي لو شو ما صار. تركنا بيتنا بَسّ بقينا بْوَطَنّا وبين أهلنا.

30. حرب شنّتها إسرائيل على لبنان، خلالها كذلك قَصَفَ حزب الله اللبنانيّ مدينة حيفا.

في أعقاب الإعلان عن إقامة إسرائيل دولةً، قامت العديد من العائلات الحيفاويّة بكلّ ما في استطاعتها من أجل عودة عائلاتها؛ فمَن كان منهم قد أرسل الأطفال إلى حين أن تهدأ الحرب، تسلّل بعد احتلال حيفا أو عبر الحدود بشكل "غير قانونيّ"، أو استخدم المسارات البيروقراطيّة وسعى إلى مطالَبة السلطات بعودتهم. وكان منهم مَن استخدم أكثر من طريقة.

> أيّام الحرب، أنا كنت أدرس بالناصرة. حياة أبوي كان يشتغل وقتها بالمينا. كان بدّه يوصل عندي، راح وصل عكّا، ومن هناك لبيروت عند إخوته. ضَلّ هناك لسنة الـ 56. إحنا سنة 56 عملنا المستحيل لنحصّل له لَمّ شمل.

وقال آخر:

> أنا بسبب علاقات العيلة في لبنان سجّلوني في مدرسة خاصّة في لبنان، بَسّ أنا صمّمت بدّي أرجع على حيفا. جرّبت أرجع مع المهرّبين بَسّ انمسكنا، ورجعنا على لبنان. بسنة الـ 50 قدّم أبوي طلب رسمي ورجعنا على حيفا، أنا وستّي وعمّتي

تشكّل قصص التجاوز والتسلُّل وعبور الحدود على نحوٍ "غير قانونيّ"، في تلك الفترة، مقاومةً قام بها الأصلانيّ لإعادة عيش حياته التي اعتادها قبل أن تقطع الحدود حياته (غانم، 2015)؛ فحين تيقَّنَ الحيفاويّون أنّ نيّة إسرائيل إغلاق الحدود، ومنع عودة اللاجئين إلى بيوتهم، خاطروا بكلّ شيء من أجل العودة إلى البيت، إلى حيفا. تتجسّد هذه المقاومة في قصص الكثير ممّن قابلتهم:

> إحنا طلعنا بطريقة مش قانونيّة، ورجعنا بطريقة مش قانونيّة. صار أبوي يطلع يوم يوم عنّا على يارون، بلبنان. الناس تنادي على إمّي عشان تروح تشوفه. ليوم، ستّي بتقول لإمّي يا نجمة دخيلك، بكرة بقتلولك إيّاه. روحي إنت عند جوزك، ارجعي لبيتك. وهيك رجعنا، تهريب. حطّونا كلّ واحد بصندوق. كانت الرجعة بالليل، وكنّا خايفين، بَسّ لمّا مرقنا الحدود بين يارون والحِشّ، ولمّا وصلنا الحِشّ صار أكثر أمان ومن هناك تسرّبنا لحيفا.

وفي تأكيد على حقّ الفلسطينيّين في العودة، توجَّهَ الفلسطينيّون بالطرق البيروقراطيّة إلى السلطات. بعضهم استخدم المسارات الدبلوماسيّة، كما في محاولة "الجنة العربيّة المؤقّتة" التي أُقيمَت في حيفا، لتسيير أمور الباقين، في رسالتهم إلى وزير الخارجيّة الإسرائيليّ في تشرين الأوّل 1948، وفيها طالبوا بعودة العائلات العربيّة إلى مدينتهم حيفا. فقد طالبت اللجنة بإيجاد حلّ "حاليّ وصادق للمشكلة التي لا علاقة لها بالمسائل السياسيّة"، وسردت في رسالتها أسباب نزوح الفلسطينيّين عن مدينتهم حيفا، ومن بين الأسباب، كما ورَدَ سابقًا، العلاقات الأسريّة، بالإضافة إلى عادة إرسال مرضى لتلقّي العلاج في مستشفيات بيروت، وإلى أنّ "بعض الطوائف واللجان الخيريّة اعتادت أن ترسل عددًا من الأطفال والطفلات الفقراء للدراسة في المدارس التبشيريّة (في البلاد العربيّة)".[31]

استعان البعض الآخر بالمحامين المتخصّصين، كما جاء في شهادة إحدى الحيفاويّات: "إحنا العيلة تسجّلت في الناصرة، بَقْصُد لمّا سجّلوا الهويّات، كنّا بعدنا بالناصرة، بَسّ أبوي صمّم إنّه يرجع على حيفا، والمحامي حنّا نقّارة هو اللّي ساعدنا نرجع".

جاءت هذه المحاولات على الرغم من أنّ طريق الخروج كانت أسهل بكثير من إمكانيّة العودة، وعلى الرغم من صعوبة الحياة في حيفا في تلك الفترة كما يُسْتَدَلّ من رسالة المحامي يعقوب سلامون إلى بِنْ چوريون: "لا أنصح أيًّا من العرب، حتّى لو كان أقرب أصدقائي، بالعودة إلى حيفا".[32] وممّا أكّدته شهادة أحد الحيفاويّين كان الآتي: "لمّا رجعت، قال لي جارنا، من يوم وطالع رح تشتهي التفّاحة [في دلالة على القلّة]. قلت له: المهمّ رجعنا على بلدنا. أنا فلسطيني وما إلي غير بلدي".

31. الحاجّ إبراهيم، 2005، ص. 30.
32. أرشيف الدولة. ملفّات شخصيّة. رسالة يعقوب سلامون إلى بِنْ چوريون حول جلسته مع المطران حكيم بتاريخ 1948/6/26. (ف- 931/7).

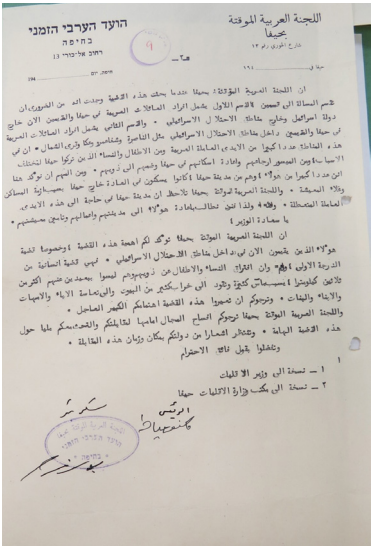

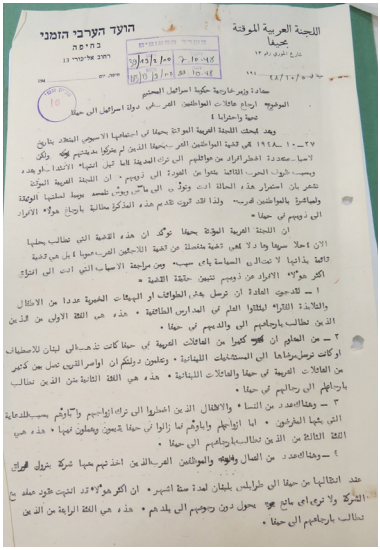

الرسالة من أرشيف الدولة. وزارة الأقلّيّات. لَمّ شمل. حيفا، 5 تشرين الأوّل 1948. (ج – 65/309).

خاتمة

شكّلت المرحلة المباشرة في أعقاب أحداث نكبة 1948 مرحلة مفصليّة في حياة الفلسطينيّين. وفي حين حظيت قضيّة اللاجئين والمهجَّرين الفلسطينيّين وواقعهم على اهتمامٍ ما لدى الباحثات/ين الفلسطينيّات/ين، هُمِّش واقع الباقين في بلادهم، ولا سيّما سكّان المدن منهم. عاد الاهتمام بالمدن الفلسطينيّة وسكّانها الفلسطينيّين في تسعينيّات القرن المنصرم، لتنشغل الأبحاث الإسرائيليّة، وكذلك الفلسطينيّة، في واقعِ ما بات يُعْرَف بِـ "المدن المختلطة"، أو في واقع المدن الفلسطينيّة قبل النكبة وخلالها، مغيِّبين بهذا جزءًا من تاريخ فلسطين، وفارضين على المتبقّين فيها تاريخًا مبتورًا.

هذا التاريخ المبتور أسهَمَ في تغييب بعض من دوافع لجوء الفلسطينيّين إلى أماكن أكثر أمنًا في فضاء كان لهم فيه تشابك ثقافيّ تجاريّ عائليّ وشخصيّ، وكذلك أسهَمَ في ترسيم حدود فعليّة ورمزيّة للباقين كان وما زال، إلى حدّ كبير، عاملًا أساسيًّا في ترسيخ نظرتهم إلى ذاتهم أقلّيّةً دون مدينة بدأ تاريخ تشكّلها عام 1948.

المصادر

أوستوسكي-لازر، ش. (1996). **تطوُّر العلاقات بين اليهود والعرب في دولة إسرائيل خلال العَقد 1948-1958**. رسالة لنَيْل درجة الدكتوراة في كلّيّة الآداب، قسم تاريخ الشرق الأوسط، جامعة حيفا، حيفا. (بالعبريّة).

إيشِل، تُسادوك. (2002). **آبا حوشي- رجل حيفا**. تل أبيب: وزارة الأمن. (بالعبريّة).

البحري، جميل. (1922). **تاريخ حيفا**. حيفا. (دار النشر غير مذكورة).

بنجامين، عوزي؛ ومنصور عطالله، م. (1992). **السكّان المستأجرون: العرب في إسرائيل، وضعهم والسياسات المتّبَعة تجاههم**. القدس: كيتِرْ. (بالعبريّة).

بويمل، يئير. (2007). **ظلّ أزرق أبيض: سياسة المؤسَّسة الإسرائيليّة وأفعالها تجاه المواطنين العرب في إسرائيل - السنوات الحاسمة: 1958-1968**. حيفا: پَرْديس. (بالعبريّة).

جريس، صبري. (1966). **العرب في إسرائيل**. حيفا: الاتّحاد. (بالعبريّة).

الحاجّ إبراهيم، رشيد. (2005). لدى: وليد، الخالدي. (محرّر). **الدفاع عن حيفا والقضيّة الفلسطينيّة: مذكّرات رشيد الحاجّ إبراهيم: 1881-1953**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

حسن، منار. (2017). **المغيَّبات: النساء والمدن الفلسطينيّة**. تل أبيب: معهد ڤان لير، ودار نشر هَكيبوتْس هَمِئوحاد. (بالعبريّة).

الخالدي، وليد. (1997). **كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمّرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شهدائها**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

خوري، إلياس. (2012). النكبة المستمرّة. **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 89. ص.ص. 37-49.

زعبي، همّت. (2019). **ديناميكيّة السيطرة، رقابة تأديب – والمقاومة اليوميّة: حيفا في فترة الحكم العسكريّ**. من رسالة الدكتوراة، جامعة بن چوريون. (بالعبريّة).

زعبي، همّت. (2021). "تحويل "حيفا الجديدة" إلى حيفا مدينة إسرائيليّة: تصميم الحيّز كأداة لهندسة الهُويّة الجماعيّة الطائفيّة". لدى: مجدي، المالكي؛ وسليم، تماري. (محرّران). **المدينة الفلسطينيّة: قضايا في التحوُّلات الحضريّة**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

زيادة، خالد. (2010). **مدينة على المتوسّط: ثلاثيّة**. بيروت: دار الشروق.

صيقلي، ميّ. (2011). **حيفا العربيّة (1918-1939): التطوُّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

عثامنة، آمنة. (2009). **تحطيم الجدران: هُويّة نساء فلسطينيّات في بيوت الفلسطينيّين في الفضاء الإسرائيليّ**. رسالة دكتوراة، جامعة بن چوريون، بئر السبع.. (بالعبريّة).

غانم، هُنَيْدة. (2015). "الحدود والحياة السرّيّة للمقاومة اليوميّة: قرية المرجة الفلسطينيّة 1949-1967". **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 102. ص.ص. 121-142.

غانم، هُنَيْدة. (2017). "من العنف المؤسِّس إلى العنف الحافظ: أو كيف يتحوّل التطهير الإثنيّ من حدث إلى بنية؟". **قضايا إسرائيليّة**، 65. ص.ص. 76-85.

غنايم، محمود. (2014). "بين الشهادة التاريخيّة وأَسْطَرة الواقع". لدى: مصطفى، كبها. (محرّر). **الأقلّيّة الفلسطينيّة في إسرائيل في ظلّ الحكم العسكريّ وإرثه**. حيفا: مدى الكرمل.

فارس، عوني. (2010). "أديبة الحلّاج: حياة ريفيّات فلسطينيّات في حيفا 1930-1948". **حوليّات القدس**. 10. ص.ص. 66-75.

فارس، عوني. (2014). "الريفيّون الفلسطينيّون في حيفا 1930-1948". **حوليّات القدس**، 17. مؤسَّسة الدراسات الفلسطينيّة.

فخر الدين، منير. (2017). "الفلسطينيّون في مصائد التخطيط العمرانيّ الإسرائيليّ". لدى: جميل، هلال؛ ومنير، فخر الدين؛ وخالد، فرّاج. (محررون). **مراجعة السياسات الإسرائيليّة تجاه القضيّة الفلسطينيّة**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

فرّو، قيس ماضي. (2013). **المعرفة التاريخيّة في الغرب: مقاربات فلسفيّة وعلميّة وأدبيّة**. الدوحة وبيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسة.

قاسم، فاطمة. (2006). "اللغة والتاريخ والنساء: نساء فلسطينيّات في إسرائيل يصفن أحداث النكبة". **نظريّة ونقد**، 29. ص.ص. 59-80. (بالعبريّة).

كبها، مصطفى. (2012). "مقدّمة الحكم العسكريّ: السياق التاريخيّ، الإرث والنتائج". لدى: مصطفى، كبها. (محرّر). **الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل في ظلّ الحكم العسكريّ وإرثه**. حيفا: مدى الكرمل.

لوستيك، إيان. (1985). **العرب في دولة اليهود: سيطرة إسرائيل على الأقلّيّة الوطنيّة**. حيفا: مفارش. (بالعبريّة).

منّاع، عادل. (2016). **نكبة وبقاء: حكايات فلسطينيّين ظلّوا في حيفا والجليل (1948-1956)**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

منصور، جوني. (2009). **المدينة الفلسطينيّة في فترة الانتداب البريطانيّ: تطوّرات وتحوّلات اجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة: حيفا نموذجًا**. رام الله: الرعاة للدراسات والنشر.

منصور، جوني. (2011). **حيفا اسم يناجي القمر ويخاطب البحر**. حيفا: جمعيّة التطوير الاجتماعيّ.

منصور، جوني. (2015). **حيفا الكلمة التي صارت مدينة**. حيفا: دار الأركان للإنتاج والنشر.

نوريالي، بيني. (2005). الغرباء في المساحة الوطنيّة: اليهود العرب في چيتو بلد، 1950-1959. **نظريّة ونقد**، 13. ص.ص. 26-42. (بالعبريّة).

هوّاري، عرين. (2023). "السيّدة كيرن كييمت: تشكُّل هُويّات رجوليّة فلسطينيّة في ظلّ الحكم العسكريّ". لدى: نديم، روحانا؛ وَعرين، هوّاري. (محرران). **الصهيونيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقاربات فلسطينيّة**. حيفا: مدى الكرمل.

يزبك، محمود. (1988). **الهجرة العربيّة إلى حيفا: دراسة تاريخيّة، اقتصاديّة، سكّانيّة، اجتماعيّة**. الناصرة: مكتبة القبس.

يزبك، محمود. (1998). **حيفا في القرن العشرين: تاريخ المدينة والمجتمع**. حيفا: المركز اليهوديّ العربيّ ومعهد دراسات الشرق الأوسط چوستاف هاينمان. (بالعبريّة).

يزبك، محمود. (2009). "**حيفا العثمانيّة: النموّ السكّانيّ والتعدُّد العِرقيّ**". آفاق في الجغرافيا، 74. ص.ص. 58-76. (بالعبريّة).

Adbu-Zubi, Nahla. (1987). **Family, women and social change in the Middle East: The Palestinian case**. Toronto: Canadian Scholars Press.

Allen, Lori. (2008). Getting by the occupation: How violence became normal during the Second Palestinian Intifada. **Cultural Anthropology**, 23(3). Pp. 453-487.

Bayat, Asef. (2000). From 'dangerous classes' to 'quiet rebels' politics of the urban subaltern in the global south. **International Sociology**, 15(3). Pp. 533-557.

Khalidi, Walid. (1961). "Plan Dalet: The Zionist master plan for the conquest of Palestine. **Middle East Forum**, 37(9). (No pages are mentioned). Retrieved on (May 23, 2024), from: https://shorturl.at/H6DM5

Khalidi, Walid. (1988). Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of Palestine. **Journal of Palestine Studies**, 18(1). Pp. 4–19. Retrieved on (May 10, 2024), from: https://www.tandfonline.com/toc/rpal20/18/1

Khalidi, Walid. (2005). Why did the Palestinians leave, revisited. **Journal of Palestine Studies**, 34(2). Pp. 42-54.

Khalidi, Walid. (2008). The Fall of Haifa Revisited. **Journal of Palestine Studies**, XXXVII(3). Pp. 30-58.

Masalha, Nur. (2012). **The Palestine Nakba: Decolonising History Narrating the Subaltern Reclaiming Memory**. London: Zed Books.

Monterescu, Daniel. (2015). **Jaffa Shared and Shattered: Contrived Coexistence in Israel/Palestine**. Bloomington Indiana-USA: Indiana University Press.

Pappe, Ilan. (2006). **The ethnic cleansing of Palestine**. Oxford: Oneworld.

Robinson, Sarah. (2013). **Citizen Strangers: Palestinians and the Birth of Israel's Liberal Settler State**. Stanford, California: Stanford University Press.

Veracini, Lorenzo. (2011). Introducing: Settler colonial studies. **Settler colonial studies**, 1(1). Pp. 1-12.

Wolfe, Patrick. (2006). Settler Colonialism and the Elimination of the Native. **Journal of Genocide Research**, 8(4).Pp. 387-409.

Yacobi, H. (2009). **The Jewish-Arab city: Spatial-politics in a mixed community**. London: Routledge.

Yazbak, Mahmoud. (2002). The Arabs in Haifa: From majority to minority, processes of change (1870-1948). **Israel Affairs**, 9(1-2). Pp. 121-148.

Yazbak, Mahmoud & Weiss, Yfaat. (2011). "A Tale of Two Houses". In Yazbak, Mahmoud & Weiss, Yfaat. (Eds.). **Haifa before and after 1948: Narratives of a mixed city**. Cape Town, South Africa: Institute for Historical Justice and Reconciliation. Series Vol. 6. Pp. 11-42.

Zu'bi (Zoubi), Himmat. (2018). "The ongoing Nakba: Urban Palestinian survival in Haifa". In Abdo, Nahla & Masalha, Nur. (Eds.). **An oral history of the Palestinian Nakba**. London: Zed Books. Pp. 182-208.

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية